الفصل الخامس

كيف يفكر الإسرائيليون

مرحبًا بتحديات السلام !

إن للسلام مزايا لا تحصى ، بل هو الأساس والقاعدة فى الحياة ، والحرب هى الاستثناء .. ولكن مع السلام تبدأ أيضاً مشاكل من نوع آخر ومصاعب تختلف . ومرحلة التعامل المباشر والتعايش اليومى مع الإسرائيليين ستظل لفترة قصيرة هى الحدث ، ومثار التركيز والمتابعة من الشعبين ومن العالم كله .. والحبة ستكون (قبة) والامتحانات متوالية .. وبرغم أن مثل هذا يحدث دائماً فى بدء التحول إلى السلام – حدث مع كل الأجناس وبكل اللغات – فإن السلام ذو ملامح هذه المرة تثير التأمل والفضول ..

وفى دورة خاصة عقدتها إحدى اللجان الوزارية ، ورأسها إيجال يادين بدأ نائب رئيس وزراء إسرائيل . طرح هذا المفهوم رسمياً – وهو ضرورة الإعداد العلمى للمرحلة الجديدة – و « يادين » ربما يمتاز عن غيره من السياسيين الإسرائيليين بأنه محسوب على المثقفين بأكثر مما هو يتبع الكوادر المألوفة من السياسيين العسكريين . وقد اهتم نائب رئيس الوزراء الإسرائيلى (حزب التقدم فى سبيل الديموقراطية) أن يطرح هذا المفهوم ويترك لكافة أجهزة الدولة ، كلٌ يبحثه فى مجاله : كيف يتكيف

المجتمع الإسرائيلى مع السلام ؟ وانعقدت مناقشة . لابد من البدء علمياً منذ الآن بتقييم المرحلة القادمة ، ليس بمزاياها فقط وإنما أيضاً بما فيها من مشاكل وسلبيات وقد طرح يادين تصوره للمرحلة التالية مباشرة للعلاقات . قال إنه يتوقع مثلا أن يجد مئات من الإسرائيليين سوف يتسابقون للسفر إلى مصر ، وذلك بدوافع كثيرة . ربما بفعل عوامل القطيعة الطويلة ، أو الفضول ، أو للتأكد أن السلام ليس حلماً . أو ربما يكون بدافع الحنين . ويقول يادين : فهل نشجع ذلك . أو نحدّ منه ؟ وكيف نتوقع أن يعاملهم المصريون ؟ وهل يأتى المصريون أيضاً ؟ وكيف سيقابلهم المجتمع الإسرائيلى ؟

كيف يمكن لمجتمعات عايشت أربع حروب فى حقبة ثلاثين عاماً أن تتلاءم وتتكيف مع عدو الأمس ... لقد حدث هذا من قبل . ولسوف يحدث .. ولكن عندما يحدث فهو دائماً الحدث الذى يتحدث عنه الناس ! مثلا هذا المجتمع العسكرى التكوين .. أول ما غرسوا فيه هو الحذر . احم نفسك ، فهناك من يتربص بك ليقتلك : كيف يمكن لمثل هذا المجتمع أن يتكيف مع الظروف الجديدة ؟ كيف يمكن لعدوين سابقين أن يتحاشيا الصدام الفكرى والثقافى ويحولاه إلى حوار أو حتى جدال ؟ . وهل يمكن أن تعالج الرواسب التى عششت فى الوجدان : وكيف ؟ وما هى الأساليب المثلى ؟ . كل هذه موضوعات هامة وجادة وتستحق منا أن تُطرح وتُبحث باهتمام ، ولا نترك مثل هذه الموضوعات الهامة للمواجهة التلقائية مع كل ما تشكله من حساسيات ..

الإسرائيليون يتحدثون

نوفمبر ١٩٧٧

وعهد المواجهة الفكرية والحضارية مع إسرائيل على وشك أن يبدأ . وهذا هو أرقى درجات التحدى الإنسانى .. مواجهة تطلق بل تلهب إمكانيات الإبداع فى التنافس والنبوغ .

هذه هى مواجهة الناضجين المتحضرين غير الهيابين ولا العاجزين الهاربين وراء أسوار المقاطعة ..

وأمثال هؤلاء كامنون دائماً بين كل القوميات والشعوب ، ولكن لم ينجح قط أنصار الجمود والتعصب الفكرى فى وقف ركب الإنسانية ، بل إن مثل هذا الصراع الأزلى هو من معالم التطور وحركة التاريخ .

ولندخل فى الصميم فلا وقت لنضيعه بعد الآن . وحتى لا ندخل إلى السباق متأخرين .

ليسأل كل منا نفسه : ماذا يعرف عن إسرائيل ؟ من المفيد بل من الأجدى ومن الضرورى أن نعرف جيداً كل مقومات الإسرائيليين . وأولها وأهمها كيف يفكر الإسرائيليون اليوم على الأقل .. حتى نستطيع أن نواجه الرأى بالرأى ونرد على الفكر بالفكر . ماذا نخشاه حتى لا نتعرف على فكر ومنطق الإسرائيليين ورؤيتهم وما يقولونه للعالم كله .

مؤسسة « كارينجى » الأمريكية الشهيرة – وهى مؤسسة غير تجارية ، ولا تتبع الحكومة ، وتخصص منحة خاصة للإنفاق على مشروعات خدمة أهداف السلام العالى – دعت فى العام الماضى مجموعة مكونة من ١٣ إسرائيلياً لقضاء أسبوع فى

أمريكا ، يقضونه فى محاورات مسجلة مع بعضهم بعضًا يناقشون فيها أمور الصراع فى الشرق الأوسط ، وإمكانيات إحلال السلام فى ربوعه . ولقد أعلنت تلك المؤسسة أنها تدعو تلك النخبة الإسرائيلية لكى يتعرف الأمريكيون على طريقة تفكير المواطن الإسرائيلى العادى ، ويعرف مشاعره ورؤيته لأسلوب الحل حول ذلك الصراع الفريد من نوعه .. وهكذا ظهر هذا الكتاب « الإسرائيليون يتحدثون » كنتاج مشترك لمناقشات على مدى أسبوع بين ثلاثة عشر إسرائيليًا ، لا يمثل كل منهم أكثر من شخصه فقط .. وبرغم أن هذا لا يعزز تمثيلهم لرأى عام متكامل مثلا ، فإنهم بلا شك يمثلون (عينة) تمثل خصائص النسيج الإسرائيلى .. أى تتجمع بينهم كافة التيارات الفكرية الأساسية التى تجتاح إسرائيل اليوم فى جدالها المصيرى ، وخاصة حول المسألة الفلسطينية ، ووسط كل التباين والخلاف ، بل التعارض إلى حد التخبط والحيرة التى سوف تقابلها بين سطور الكتاب الذى يشمل ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط .. غير أنك لن تخطئ نقطة إجماع كامل : لا تردد ، ولا حيرة ، ولا قولين حولها ، وهى الوجود . والتشبث بهذا الوجود ، والبقاء بأى سبيل . فى آخر أيام الاجتماعات قال أحدهم (يائير) : « لدينا الآن مكان تحت الشمس خاص بنا . ونتمى إليه بعد تاريخ طويل من المعاناة . ولن نطلب من أحد أيًا كان الإذن بذلك البقاء » .

وأهمية هذا الكتاب أنه جديد فى نوعه ، وبشكل أسرع السبل لمن يريد أن يلم بتفكير الإسرائيليين الآن . تاريخيًا .. وقوميًا . وعقائديًا وسياسيًا أيضًا . فقد جرت المناقشات رؤية المواطن الإسرائيلى العادى ومفهومه لموضوعات ومعانٍ تتراوح ما بين الصهيونية .. اليهودية .. إلى رد الفعل القومى العربى والفلسطينى فى العشرينيات والثلاثينيات .. وإلى ما أدت إليه حرب ١٩٧٣ وفض الاشتباك .. والحوار المسجل حرفيًا فى الكتاب منسوب إلى أصحابه ، كلٌ باسمه . يترك انطباعًا قويًا لدى القارئ

بأن إسرائيل قد وصلت لأول مرة إلى مفترق الطرق .

« لقد ذكرنا مراراً فى المدة الأخيرة أن لدينا فى إسرائيل أزمة زعامة . ولست أظن أنها كذلك .. وإنما هى أزمة حيرة وتخبط .. إنها أول مرة منذ إنشاء الدولة نجد لزاماً علينا إيجاد إجابات محددة على تحديات جديدة . ولكن ربما نكون مختلفين متحيزين حول بدائل نواجهها .. ولكننا جميعاً على اتفاق تام حول مسألة واحدة : وجودنا ذاته » .

° ° °

ولأن التسلح بالمعرفة ودراسة مقومات الرأى الآخر هما أهم عناصر الأسلوب العلمى .. ولأن ذخيرتك من أصول المعرفة هى الإلمام بكل ألوان التفكير المتعارض . ولأنه قد ثبت أن الإسرائيليين مزودون بدراسة متكاملة وشاملة لمقومات الحضارة المصرية وللتراث العربى والفكر المعاصر .. ولأننا على عتبات تحد قومى وحضارى مع إسرائيل ، لا نخشاه بل نرحب به ، فمثل هذا التنافس يعود دائماً بالنفع على الإنسانية وتعم فوائده على الأجيال .

وإذن لنكون على المستوى اللائق برصيدنا الحضارى فى مرحلة المواجهة الجديدة ، من الأجدى بل من الضرورى أن نطلع على الرأى الآخر وندرس بجدية مقومات الفكر الإسرائيلى ، والرؤية التاريخية السياسية التى يعتنقوها ويقيمون عليها صرح دعواهم .

ومن كتاب (الإسرائيليون يتحدثون : عن أنفسهم وعن الفلسطينيين) يقول زفاى : « إن الصراع ، على الأقل فى مراحله المبدئية ، هو صدام بين حركتين قوميتين تتصارعان على ذات الأرض . إحداهما هى الحركة اليهودية – الصهيونية ، وهى ترى حقها فى فلسطين على أساس تاريخى طويل وحنين جارف إلى زيون (صهيون) .. فقد بقيت فلسطين أو أريتز إسرائيل (بالعبرية أرض إسرائيل) جزءًا

لا يتجزأ من تاريخ اليهودية . ولا بديل عن ذلك للتراث اليهودى ، ولا للحياة القومية ، ولا يوجد حل آخر للمشكلة اليهودية إلا فى : أريتز إسرائيل .

أما الحركة القومية الأخرى وهى الحركة القومية للفلسطينيين العرب ، والتى تعتبر تاريخيًا – جديدة – والتى تشكلت تحت ظروف مصطنعة (! !) إذ لم يحدث قطّ فى التاريخ الإسلامى العربى أن كانت أرض فلسطين تشكل وحدة سياسية قائمة بذاتها . أو دولة متكاملة فى حد ذاتها .. فهى عندما كانت كيانًا سياسيًّا قائمًا فهى إما كانت يهودية أو صليبية .

والكيان الفلسطينى العربى لم يتبلور بعد . توجد أعداد كبيرة حقًّا من الفلسطينيين ، خصوصًا بين الجماهير العريضة ، يحيون على المقومات الإسلامية .. بعضهم ذوو ولاء قوى للعروبة ، وكلاهما : المقومات الإسلامية والمقومات العربية أقوى من المقومات الفلسطينية فيهم .. إذ أن بعضهم يرى نفسه منتميا إلى جنوب سوريا . وبعضهم يعرف نفسه كأردنى . والبعض ينتمى انتماءات محلية كمثل انتمائه إلى نابلس أو هبرون (الخليل) وغيرها ..

والعديد من هذه التشكيلات نراها أيضاً فى منظمة التحرير .. خمساً من بين منظماتها الست تتبناها دول عربية مختلفة ، أولها اتجاهات عربية متباينة . ورغماً عن ذلك فلا جدال فى وجود شخصية فلسطينية قائمة ، برغم ضعفها وبرغم أوجه قصورها ... وبالمثل يمكن أن نقول عن الشخصية السورية . والشخصية العراقية . واللبنانية .. كلها مقومات ضعيفة ومصطنعة ولكنها موجودة . والمقومات الفلسطينية مثلا ليست أضعف من مثيلاتها العراقية أو السورية أو الأردنية بل ربما تكون أقوى منها ... فكلها عبارة عن واقع سياسى ولكن لا نستطيع أن نتجاهله .

والشعب الفلسطينى العربى يناضل من أجل تقرير مصيره مثل ما فعلت الدول العربية الأخرى . أن تكون له صفته .. مثل العراقيين . والسوريين .. واللبنانيين ..

فإنهم الشعب العربى الوحيد الذى لم يمارس حق تقرير المصير.

ونظريًّا يمكننا أن نسوى الصراع فيما بين كلتا الحركتين القوميتين باعتراف متبادل . بتقسيم الأرض . بالتنازلات المتبادلة .. ومعظم الإسرائيليين يعترفون بالحق الفلسطينى والغالبية ، إن لم يكن بالإجماع : يريد الإسرائيليون السلام . ولكن لا يمكننى أن أؤكد ذلك فيما يختص بالعرب .. فإن العرب من جانبهم لم يعترفوا قط بحق اليهود على جزء من الأرض (أريتز إسرائيل) . ربما استطعنا – نحن والفلسطينيين العرب – أن نحل المشكلة إذا ما كنا نتناولها فيما بيننا . ولكنّ الفلسطينيين عندئذ يكونون جزءًا من الشعب العربى .. والدول العربية دخلت طرفاً واشتبكت والتزمت ، بل أصبحت فلسطين هى محك القومية العربية .

وفى رأيى أننا لن نتمكن من حل المشكلة الفلسطينية بدون حل الصراع العربى الإسرائيلى . والعكس صحيح .. أى لا يمكن حل الصراع العربى الإسرائيلى بدون حل للمشكلة الفلسطينية . إنها حلقة تبدو مفرغة ! » .

درور : « إننى أيضاً أرى الصراع مع الفلسطينيين صداماً بين حركتين قوميتين .. ومع هذا فإننى أريد أن أركز على أن العرب الذين نعموا بحق تقرير المصير – فى مختلف الدول – وذلك ما بين مناطق شاسعة منذ الحرب العالمية مثل العراق والشام ، هؤلاء كانوا معادين لنا ، ليس فقط لحق تقرير مصيرنا وإنما أيضاً لحقوق الملايين من غير العرب .. ومنذ ١٩٢١ ، اجتاحت الشرق الأوسط سبع موجات من الاضطرابات والحروب ، وخلال تلك الفترة تخلق وتظهر إلى الوجود ما يعرف اليوم بالشعب العربى الفلسطينى . وفى الحقيقة لقد لعبنا دورًا مهماً فى تشجيع ذلك ، فمن حيث الوجود يوجد شعب فلسطين . وتوجد مشكلة فلسطينية . ولا يمكن لنا إنكار ذلك ، وليس أمامى إلا أن أقرره .. فإن الصراع بين الشعبين أو الحركتين القوميتين هو على أرض فلسطين . ومنذ البداية كان واضحًا أن دولة يهودية

ودولة عربية لابد أن ينموا داخل نطاق أرض فلسطين .

وقد حدث التقسيم للأرض مرات ثلاثاً ..

أولاها : فى عام ١٩٢٢ ..

والثانية : فى ١٩٤٧ – ١٩٤٩ .

والثالثة : عام ١٩٦٧ .

والآن علينا أن نقوم بالتقسيم الرابع فى حل نهائى شامل .. فى عام ١٩٤٨ كان بإمكان الفلسطينيين العرب أن يقيموا دولتهم على الجزء الذى كان من نصيبهم فى مشروع التقسيم الذى قامت به الأمم المتحدة .

والدول العربية وليس اليهود هم الذين قاموا بتحطيم الدولة العربية الفلسطينية المقترحة . وإننى أرى حل المشكلة الفلسطينية داخل نطاق تقسيم جديد يخرج من اتفاقية سلام بين إسرائيل ووفد أردنى – فلسطينى موحد فى مؤتمر جنيف . ولكن علينا أن نكون من الشجاعة أيضاً بحيث نتحدث حتى مع منظمة التحرير . وأن نبحث فى أهدافهم الحقيقة والنهائية .. ولو أننا لا يجب أن نتفاوض معهم قبل أن يتخلوا عن أهدافهم المعلنة التى أدرجت فى الميثاق الفلسطينى . إننى على استعداد للتخلى عن أراضٍ مقابل أمن حقيقى وسلام ... » .

عموس إيلون !

عندما تسمى الأشياء بأسمائها الصحيحة !

أبريل ١٩٧٩

احترمته مرتين . مرة لأنه صاحب الآراء الحرة التى قرأتها عنه وله . ومرة لأنه أبى أن يردد هنا فى القاهرة ما يكتبه ويردده فى إسرائيل أو فى أمريكا . هذا مجال . وذاك مجال .

موقفه هنا فى القاهرة يختلف .. لم يشر إلى ذلك صراحة ولا فخرًا . وإنما التزم فى صمت بعرف متبع .. وبمسئولية أخلاقية لا يستطيع أن يتناساها .

وأبدأ بتقديم أفكاره وآرائه التى يطرحها وينشرها على الملأ . ومنها الحديث المتميز الجرىء الذى نشرته له مجلة «نيوزويك» الأمريكية فى الحوار الذى دار معه ، إن عموس إيلون يشير إلى ظاهرة هامة عندما يعرض انتقاده المر للأسلوب الذى تتبعه حكومة بلاده فى « خداع النفس » من خلال تبرير وسائلها غير المشروعة فى المناطق المحتلة . إن عموس يكشف عن تفكيره كله من خلال استعراض هذه الوسائل .. فهو يعرض لتلك الفئة من الشعراء المتحمسين وبعض الكتاب والصحفيين الذين ساهموا عن قصد أو غير قصد فى مد القاموس السياسى – القومى لإسرائيل بتعبيرات مخادعة .. إنها أحياناً تعبيرات تحاول أن تجمل الواقع البشع .. وأحياناً تحاول أن تضفى « الورق المفضض » لتبيع واقعًا فاسدًا فى ساحة الحقيقة .. إنها التعبيرات التى تدخل إلى آلة الغسيل فى محاولة لتنظيفها .. إنها ثياب تحاول أن تستر عورة فعل قبيح بثوب مقبول ولباس يبدو شرعيًا ..

مثال : يقول فى حديثه إلى المجلة الأمريكية العالمية عند ذكر « الأراضى المحتلة » : يستخدمون تعبير جوديا وساماريا . أو يقولون « الأراضى المحررة » عندما يقصدون الأراضى المحتلة .. ولكن ومهما كانت مطالبنا فى الضفة وغزة فما هى سوى مناطق محتلة .. وسكانها قد تم قهرهم بقوة السلاح .. ونحن هناك إنما نحكم شعباً ضد إرادته .. وبوسائل قمع غير مشروعة .

أما الذى (يؤلف) هذه التعبيرات فهم مزيج من الشعراء المتحمسين . ولأسفى كتّاب أيضاً وصحفيون نشطوا لإيجاد المبررات اللغوية لأفعال سياسية غير مشروعة .

مثال آخر : بعد حرب الأيام الستة (١٩٦٧) بدت إحدى الصحف الإسرائيلية الكبرى وكأنها لا تطيق أن تسجل اسم : الفلسطينيين على صفحاتها : وكانت تروج بأن هذا الاسم – الذى عرف على مر التاريخ – ليس بالاسم الصحيح . وإنما الصحيح هو أريز إسرائيل ، أى أرض إسرائيل .. ولايوجد شىء اسمه فلسطين ، وبالتالى لا يوجد ما يسمى بالفلسطينيين !

وقد أدى ذلك إلى مهازل كثيرة .. كمثل أن يصدر كتاب .. مؤداه أن الغزو المملوكى فى العصور الوسطى كان مثار ترحيب عرب أرض إسرائيل !

ما هذا الهراء ! نفس هذه العقلية حاولت أن تخفى « ضم » القسم الشرقى من القدس وراء تعبير من التعبيرات تحت اسم : « توحيد المدينة » !

وتوجد حالياً مهازل لغوية كثيرة نتيجة تشجيع الحكومة لهذا النوع من الخداع للنفس ! كمثل أن يردد المتحدث الرسمى تعبير تغيير سكنى أو Relocation عندما يحدث انقضاض على مضارب البدو مثلا . ويطرد سكانها من مأواهم ومزارعهم التى عاشوها وبذروها وحصدوها عبر عشرات الأجيال .

وتعبير شهير آخر طالما استخدمه موشى ديّان . . التعايش أو co-existence ويعنى به طبعاً ضرورة التعايش بين اليهود والعرب فى

المناطق المحتلة .. طبعًا هو يقصد نوعية من التعايش مثل التى تحدث بين راكب الحصان والحصان ذاته ! . أى أن التعايش – الديّانى – هو تعايش بين شعبين ، أحدهما يحكم الآخر !

وأما التعبير الرسمى المتداول : المستوطنات فهو فى حد ذاته مليء بالمغالطات ، فإن تعبير الاستيطان هو « غطاء » لعملية نزع الملكية لشخص آخر !

وقاموس السلطة الإسرائيلية لا يعترف بما يسمى نزع ملكية الآخرين وهو التعبير السليم لإقامة المستوطنات ..

والذى يحدث هو أن (تسور) قطعة الأرض أى تصبح مغلقة .. ولأغراض « الأمن » طبعًا .. دائمًا لأسباب تتعلق بالأمن .. ولكن فى ذات صباح تظهر الجرارات .. وتبدأ ظهور بوادر ما يعرف بمستوطنة على الأرض المغلقة !

وهذا بالتمام ما حدث فى حالة مستوطنة « كيريات عرب » ، وهى أكبر مستوطنات الضفة الغربية على الإطلاق .. إنها تقوم على أرض لم يعلن قطّ عن نزع ملكيتها من أحد !

ومثال غيره : التعبير المتداول حاليًّا وهو تكثيف المستوطنات .. وهو ما يعنى لأول وهلة أن المسألة عبارة عن إضافة بضعة منازل جديدة .. ولكن فى حالة مستوطنة اسمها « مع الله أدوميم » كان التكثيف معناه أو مؤداه هو امتداد المنازل الإضافية إلى مسافة عشرة أميال » ! ! .

غيره : دأبت الحكومة العسكرية فى الأراضى المحتلة أن تعلن فى أول كل عام دراسى عن وقوع بعض الشغب فى المدارس العربية .. وهذا فى وصف المظاهرات والإضرابات التى يقوم بها الطلبة فى الشوارع ضد الاحتلال الإسرائيلى .. ومفهوم أن التعبير المستخدم لأى مظاهرات عربية هو الشغب والإخلال بالأمن !

ويعتقد هذا المثقف والكاتب الإسرائيلى الحر أن حرب الأيام الستة كانت كارثة

معنوية لإسرائيل ! برغم أنه لم يكن أمامنا من خيار سوى الحرب ، إلاّ أن مدى النصر السهل الذى أحرزناه كان بداية للإفساد المعنوى الذى تعرضنا له .. فهو لم يؤثر فقط على اقتصادنا . وإنما أيضًا أثر على قيمنا وثقافتنا وتعبيرنا ، وشوه تمامًا هدفنا التقليدى لأيديولوجيتنا .. فلم تقم الصهيونية أصلاً وأساسًا لكى تتوسع فى الأرض .. وإنما قامت حلماً واقعيًا لمجتمع أفضل يكون مرفأ أمان لكل يهودى استعصى عليه العيش فى أمان بأى مكان .

خلال المناقشات فى الكنيست وجدت كل عضو تقريبًا من الأعضاء الثمانين الذين تحدثوا بآرائهم إلى المجلس .. وجدتهم يتحدثون إما عن المخاطر . وإما عن « الثمن الأليم » للسلام .. يقصدون بذلك إعادة الأراضى المحتلة إلى العرب . ماذا يؤلم فى إعادة أرض ليست لك .. وإنما أخذتها لتصلح « ورقة » تستخدمها على مائدة التفاوض ؟ ! »

مركبات نفسية
فى العلاقات المصرية الإسرائيلية

أبريل ١٩٧٩

ساءلت نفسى هل سقت الضمير الحى وأخلاقيات وتفكير الكاتب الإسرائيلى (عموس إيلون) كمقدمة طبيعية أو أن ذلك جاء تبريرًا ذاتيًا أمام تردد نفسانى ..

وبكل التأنى اعترضت .. باعتبار أن التبرير تعبير غير موفق ، لأنه ليس دقيقاً ، وإن كان بعضه صحيحاً .. فإن الشق النفسانى له فعلاً نصيب .

وطوال المرحلة اللاحقة فى علاقاتنا الناشئة مع إسرائيل . يبدو تحفظ أو تردد أو

حيرة ، قد يصل إلى حد أو حدود الأزمة ، ولابد أن نتوقع هذا ونقر بوجود هذا التردد النفسى كأمر وارد . ووارد كثيرًا لأنه وضع طبيعى وصحى ... فلا يمكن أن نتوقع مثلا لهذا التحول العقلانى الهائل الذى طرأ على مفهومنا لأسلوب حل الصراع ، أن تصحبه مشاعر تجاوب تلقائية مع التعامل الطبيعى .. ولم يحدث التحول العقلانى فجأة .. بل جاء نتيجة تفاعل نفسى ومادى ، والتحول الطبيعى فى المشاعر لن يطرأ فجأة ولا دفعة واحدة لمجرد أننا وقعنا اتفاقاً تعاقديًا للسلام .. المشاعر التلقائية الجارفة موجهة للسلام كفكرة لمضمون . أما المشاعر الطبيعية للشعبين المصرى والإسرائيلى فإن أمامها مرحلة بناء . وصعوبتها أنها تتم فى ظل اختبارات متلاحقة وصعبة ، على الأقل طوال الأعوام الأولى ، التى يضع خلالها كلا الشعبين زميله الآخر تحت منظار مكبر .

إذن . ما هو السبيل إلى الوصول بالعلاقات التعاقدية إلى العلاقات الطبيعية . والمقصود بالطبيعة ليس هو المعنى الحرفى أى تبادل مظاهر شكلية .. وإنما التبادل التلقائى للعلاقات بدون تزود من معين العقل أو معاودة الاقتناع وقبول الواقع العملى المجرد وإنما أن تنمحى الشكوك المتبادلة .. وتحل محلها الثقة .. كيف يمكن بناء هذه الثقة ..

نبدأ إذن بمواجهة لهذه الشكوك ! !

قال هو : تساؤل ما يزال رنينه يتردد فى إسرائيل حتى الآن .. هل المصريون جادون حقًا فى السلام ؟ هل نأمن لهم فى المستقبل ؟ وهل يسرى هذا على الأجيال القادمة ؟ مشكلة الإسرائيليين – بل اليهود عموماً – هى الشك المتوارث ورصيد من الخوف والقلق من الغير . ومن الغد . ومن المجهول . من الصعب أن نقتلع هذا الخوف بسهولة ليحل محله الاطمئنان بصك تعاقدى ، لهذا فقد كشف بوضوح عن التجربة الإنسانية التى « هزته » من الأعماق هنا فى مصر .. كانت زياراته لعدة

مدارس للأطفال وللصبية . لقد أُعد له برنامج وفق ما طلب أن يراه ويشاهده على الطبيعة . فكان مطلبه هو هذا التعارف بأجيال الغد .. فما الذى هزه من أعماقه ؟ قال اللغة التى لا يطعن فيها أحد تعبير هؤلاء الصغار بالخط وباللون عن فرحتهم بالسلام .. « إن السلام الذى رأيته ناطقًا فى عشرات وعشرات من الرسوم التلقائية فى هذا الفن النابع بأصالة من نفوس بريئة لا تعرف الزيف ولا الخديعة هى التى هزتنى . وملأت شرايينى بالأمل والاطمئنان » وأفضل أن أتركه يعبر قليلا ليكشف مكنونات داخلية .. فتسمعه يقول : (هذا « النقاء » المصرى فى عينى هو الفن الأصيل هو الثقة فى الغد . لقد رأيت فيهم براعم أصالة فنية صدقينى على مستوى عالمى) ..

وكأنه أرادها معه مستندات معنوية أفراح الطفولة فى مصر .. فقد طلب أن يصحب معه بعض هذه التلقائية الفنية فى التعبير لأصابع أطفال وصبية يصعب أن يطعن أحد فى شهادتها . وقال : سأذهب بهذه الشهادات الفنية إلى المتحف القومى وأطلب عرضها هناك . تعبير الأطفال المصريين وفرحتهم بالسلام .

وهنا جاء دورى فى مضمون الشكوك المصرية تجاه النوايا الإسرائيلية . وقلت له : إن الشكوك المصرية تحمل واجهتين . واجهة مسئولية فلسطينية لم تحل أنفسنا منها .. وواجهة حضارية على مدى طويل ..

بمعنى أوضح شكوك فى تطلع القلة وهى إسرائيل إلى السيطرة على الكثرة بالتفوق العصرى أو التفوق العلمى .. أى بدءًا بالتكنولوجيا وانتهاء بالاقتصاد .. وهذه نبرة لا يمكن أن نغفل ترديدها وأنها أيضاً تؤدى مفعولها فى بعض الأحيان .. فماذا يقول :

« لقد لاحظت أن هنا اتجاهًا إلى المبالغة فى مزايانا أو تضخيم مواهبنا . وهذا ما يحدث ، وأمره مفهوم من فرط الحذر والإحساس بالمسئولية . إنه يحدث لدينا

بالقابل عند حسبان كافة عوامل الخطر .. وهذا أمر طبيعى بعد كل هذه الأعوام من التربص وصراع الحروب . ولكن ما وجدته أو أدركته هو أنكم تبالغون حقًّا فى إضفاء المزايا والمواهب الخارقة علينا .. أدركت هذا خصوصًا بعد إتاحة هذه الزيارة لى إلى مصر . ولكن بعد ما تفقدت نواحى عديدة من التقدم والعمران ما كان ليكفى أن أقرأها سطورًا مكتوبة أو أحرفاً ميتة على الورق .. دعينى أذكر شيئاً محدداً . هل إذا كانت لدينا كل هذه القدرات الخارقة أما كان أجدر بنا أن نعالج ولو قليلا اقتصادنا فى إسرائيل .

« مثال آخر أريد أن أسوقه بالتحديد . إن لنا شهرة عظمى فى العالم تشبه المعجزات فى إمكانيات استزراع الصحراء .. أليس كذلك ؟ . لقد كنت أصدق ذلك بالفعل حتى جئت إلى هنا – ورأيت لديكم هنا فى مصر ما هز هذه الثقة الشديدة فى الشهرة الإسرائيلية بتحويل الصحارى إلى مزارع خضراء هذا الذى شاهدته هنا ما بين القاهرة والإسماعيلية على مدى الصحراء التى تتحول بسواعد ، بل بأظافر المصريين إلى مزارع هو ما جعلنى أوقن بأن هناك الكثير جداً مما سوف نتعلمه منكم .. إننا أصحاب مواهب . نعم .. مثلنا مثل كل شعب . ولكن المبالغة الشديدة أحياناً تضحكنى . وتفزعنى . إن لدينا مواهبنا ولكنها ليست خارقة . ولا هى بمعجزات . ولسوف نتبادل منافع وخبرات وسأكتب عندما أعود عن الكثير الذى رأيته هنا . وعن الشخصيات المصرية العديدة التى قابلتها وتركت الأثر فى نفسى . مثلا ذلك الرجل المدهش (عثمان) الذى يقود الزحف الهائل على أرض الصحراء فتتحول إلى مزارع . هذا ما أسميه التصميم الخارق لسواعد المصريين » .

عموس إيلون :
لا تحكموا على إسرائيل من أقوالها !

ربما يكون السبب فى أزمة بعض المثقفين فى مصر وفى العالم العربى ، والذى يصل أحياناً إلى حد التناقض الذاتى مع أفكار مسبقة لهم ومواقف مفتوحة ، ربما يكون راجعاً إلى إحباط فكرى مؤقت .. لأن القيادة السياسية قد سبقت عصرها وتخلَّفَ وراءها المثقفون .

وهو على عكس ما يجرى عبر التاريخ دوماً ، وهو أن يكون القياد الفكرى للمثقفين فى حركات التغيير الكبرى .. فهم الذين يعدون المناخ أمام الثورات أو عوامل التحول الهامة فى حياة الشعوب .

ولكن يبدو أن الجمود الفكرى الذى أصاب المثقفين على مدى حقبتين – فى الخمسينيات والستينيات – لا يزال يأسر حركة الانطلاق فى الخَلْق والإبداع !

وقد عُرف المثقف بأنه ضمير عصره . بمعنى أنه هو الذى يستطيع أن يصل بفكره من خلال الواقع إلى إيجاد منطق مقبول يعرف بالعدالة .. متخطياً فى طريقه أى انتماءات مذهبية أو عاطفية أو عصبية .. المتوارث منها والعابر . وهذا هو دور المفكر والفيلسوف والمثقف عموماً فى المجتمعات وعبر التاريخ .. فإذا ما حاولنا أن نطبق هذا على الصراع الفريد فى هذا العصر ، والمعروف بالصراع العربى الإسرائيلى .. فماذا نجد ؟

نجد أن القطار قد فات المثقفين العرب عموماً والمصريين خصوصاً فى المرحلة الأولى على الأقل ، وأدت الزعامة السياسية دور القيادة فى الفكر الثورى ممثلة فى

أنور السادات .. ومع ذلك فلا تزال أمامهم فرصة أخرى ومهمة لا تقل أهمية فى المرحلة المقبلة .. وهى تتمثل فى إيجاد حل فكرى للمشكلة الفلسطينية يفتح الطريق أمام السياسيين ويدفعهم دفعاً .. إنها فرصة مواجهة بأسلوب حضارى بين المثقفين العرب .. والمثقفين فى إسرائيل ..

يقول (عموس إيلون) : من المفارقات الصعبة ابتداء أن كلتا العقليتين – العربية واليهودية – من نوعية واحدة .. أى أن كلتيهما تقوم على أسس معنوية لها أعمق الأثر فى تكوينهما .. وهذا ما يحيل صراعهما معاً إلى كل هذه التركيبات والتعقيدات .. بمعنى أوضح . أن العقليتين : العربية واليهودية ، تقومان على أسس أخلاقية وفق عوامل الخير والشر .. أى أن الحياة عبارة عن صراع عوامل الخير ضد عوامل الشر . أى أن كليهما وفق مصدر قيمه المعنوية يميل إلى إخضاع الأمور إلى هذا المنطق وحده ، أى كل صراع هو بين حق وباطل . خير وشر .. أسود وأبيض .. مع أن لصراعهما هذا سمة « غريبة » عنهما تماماً .. غريبة أو غريبة باعتبار أن صراعهما له سمات المأساة الإغريقية .. وهذه مفارقة ضخمة ! إننى أرى هذا الصراع وكأنه إحدى مآسى سوفوكليس .. ليس صراعاً بين الخير والشر . أو الحق والباطل .. إنما المأساة الإغريقية صراع بين « حقيقتين » أو عدالتين .. وهذه هى المأساة الكبرى .. أو المأساة الإغريقية .. عندما يتصارع بطلان كلٌ منهما برىء .. أو كلٌ منهما يمكن أن تسوق له الأعذار والأسباب .. إنه صراع القدر الغاشم . طريق دُفع إليه باثنين ليتصارعا ، خلط الظلم بينهما وتبادلا المواقع . كل منهما مقتنع بأنه صاحب حق مشروع يقاتل من أجله . وهل هناك حق مشروع بأكثر من حق الحياة ذاتها .. إذن ليس أمامه من دفاع عن حقه فى الحياة إلاّ بإفناء الآخر .. كل منهما لايرى قضية الآخر إلا من خلال رؤيته المتوارثة للحق والباطل .. للخير والشر كليهما جذور تضرب فى أعماق قيم ومعان وأخلاقيات لا تزال تؤدى دورها ...

ولكن .. ألا من حل عصرى لمأساة إغريقية ؟ ! .

ولكن إذا كانت للحقيقة وجهان ، فإن للعدالة وجهًا واحدًا . ولوناً لا يتغير .. لأن العدالة نتاج عقلانى بحت .. وكما أن العقل لا يتجزأ فالعدالة أيضًا لا يمكن أن تتجزأ . لابد أن يضم العقل الحقيقتين المتصارعتين معاً .. أى وجهى الحقيقة ويفسح لكل منهما اعتباراً ومكاناً . وليس من سبيل إلاّ بمحاولة تبادل المواقع مع خصمك وترى بعينيه وتضع منظاره .. فهذا هو الحل العصرى لهذه المأساة لإدراك حجم المشكلة الأخرى ومدى معاناة الطرف الآخر . العقل عندئذ فقط يستطيع أن يستوعب الحقيقتين معاً فى وجودية فكرية قائمة . ويقرر لها صياغة تؤدى إلى منطق عقلانى مقبول بتواجد الآخر .

« لهذا فلم يكن بغريب أن ينشغل فيلسوف مثل جان بول سارتر بهذا الصراع بالتحديد ويجتذبه دون كل الصراعات الأخرى فى هذا العصر . لأنه الصراع الأمثل للحل على أساس تطبيق نظرية الفلسفة الوجودية ! الإقرار العقلانى بالتواجد وهذا هو الحل العصرى لهذه المأساة الإغريقية » .

ألا تدرك أن من الظلم أن يطالب أحد الفلسطينيين – سواء كانوا منتظمين فى منظمة التحرير أو غير ذلك – أن يقوموا بالاعتراف بإسرائيل – وعلى بياض – دون أن ينالوا أى حق من حقوقهم المشروعة ؟

قال : عرضت صياغات عديدة رفضوها جميعًا .. لقد عرضت مراراً ودومًا أن أجلس إلى أى منهم . أى من أعضاء منظمة التحرير .. لنجادل بعضنا بعضاً .. ولنحاول أن نوجد حلاً معًا كآدميين لنا عقول وحقوق وواجبات .. فماذا كانت النتيجة ؟ . رفضوا الجدال المفتوح ، رفضوا أن نلتقى .. مع أننى أعرف أن منهم من يقبل أن يلتقى – سرًا – ببعض الشخصيات الإسرائيلية .. وأنا ما زلت غير متفهم لمثل هذه المواقف منهم حتى الآن .. وعلى العموم حتى مقابلاتهم السرية لا تؤدى

إلى شيء ، لأنهم قد ساهموا فى إحراج كافة الشخصيات الإسرائيلية المعتدلة التى ذهبت لملاقاتهم .

فما من اتفاق قد تحقق مما اتفقوا عليه فى كل مرة !

وغير ذلك . لقد نصحهم السادات مراراً أن يشكلوا حكومة فى المنفى ويتخذوا وجهاً سياسياً سوف يستقطب لهم من الإسرائيليين أكثر مما يفعل العنف والقتل والدمار .. ولكنهم لم يقبلوا بذلك ! .

– ولكن فى يقينى أن المفاوضات بين مصر وإسرائيل حول أولى خطوات الحقوق الفلسطينية المشروعة سيكون لها أكبر الأثر على الأغلبية الفلسطينية بالسلب أو بالإيجاب .. وبصراحة أن كل تصريحات مناحم بيجين لا تفلح إلاّ فى إذكاء الشكوك وسوء الظنون والنفور و ....

قال أرجو ألاّ تحكموا على إسرائيل من خلال الأقوال وإنما من الأفعال .. ولاتجعلوا التصريحات الخطابية والبلاغة والفصاحة السياسية هى المقياس من الآن .. فإن الأغلبية الساحقة من الشعب الإسرائيلى تهدف إلى العيش فى سلام .. وما رأيته هنا مطمئن وما كنت لأستطيع أن أدركه من خلال حروف صماء .. وفى اعتقادى أنه ما دامت الأمور قد وضعت فى منطلق هذه القوة الديناميكية الهائلة فلن يستطيع أحد من السياسيين أن يتجاهل ذلك .. وعلينا أن ندفع هذا التيار دفعاً بتبادل المثقفين والكتّاب والصحفيين والأكاديميين .

ولكن ليس برجال الأعمال !